صورة الممدوح في شعر ابن درَّاج القسطلي

أ ـ عبد القادر صحراوي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

ملخص:
تكتسي صورة الممدوح في شعر ابن درَّاج القسطلي أهمية كبرى لا سيما أن عدد الذين مدحهم الشاعر من الأمراء والوزراء وقادة الجند والقضاة. لا يقل عن تسعة وعشرين ممدوحا، وهذا ما دفعني أن أجيب عن الإشكال الآتي: كيف تحول غرض المدح عند ابن دراج إلى قصيدة مدحية؟ وكيف تشكلت صورة الممدوح في شعر ابن درَّاج القسطلِّي في معترك هذه الكثرة من الممدوحين؟وما الذي تميزت به هذه الصورة ؟

الكلمات المفتاحية:

ابن دراج، المدح، القصيدة المدحية، صورة الممدوح، جمالية الصورة.

Abstract:
This paper aims to study the image of praised in the poetry of Ibn Darraj Al-Qostoli. Firstly, it includes a concise presentation of the subject of this study, and so, It presents the linguistic and the terminological definition of the praise over all his chronological existence except in Andalusia. After that, it stands beyond the life of Ibn Darraj and his time and cultures, and even his praised poems. Finally, It shows the most important images of praise's purposes, such as bravery and generosity of the kings and princes of the two families; Ameria and Tajiebit in the end of fourth century and the beginning of the fifth one.

Keywords: Ibn Darraj, praise, poem Midhah, image acclaimed, aesthetic image

مقدّمة:

يرصد هذا المقال صورة الممدوح في القصيدة المدحية لابن درَّاج القسطلي الأندلسي، [1] ولا سيما أن عدد الذين مدحهم الشاعر ابن درَّاج لا يقل عن تسعة وعشرين ممدوحا، و سعيا مني إلى تقديم هذا الشاعر الأمازيغي (معناها في الهامش) الأصل الذي لا تقل شهرته عن شهرة أبي الطيب المتنبي باعتراف القدامى والمحدثين، فهذا أبو منصور الثعالبي يقول فيه

"

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2018

: "كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول...". [2]

كما أن حجم هذه القصائد في ديوانه الذي بلغت فيه مائة وثلاثا وستين قصيدة، وعددا من المقطوعات جلها في المدح لَدليلٌ على تميز هذا الشاعر وامتلاكه الصدارة بين أقرانه في عصر يعد أوله من أزهى العصور في الأندلس، وهذه الوفرة الشعرية وخاصة في تنوع صورة الممدوح لتعد ظاهرة تسترعي الانتباه وإن اختلفت بعض مقدمات القصائد ومواضيعها، ومن هنا وجب تتبع هذه الظاهرة للقصيدة المدحية في ديوان ابن درَّاج، وإن كان غرض المدح ليس جديدا على الشعراء الأندلسيين ولكنه انتقل على يد الشاعر ابن درَّاج من غرض المديح إلى قصيدة المديح، فلم يصبح المدح غرضا كالأغراض الأخرى من هجاء ورثاء وغيرهما، بل أصبح هو القصيدة بعينها؛ لهذا أردت من خلال هذا المقال الوقوف على الظاهرة و الكشف عن تنوع وتعدد صورة الممدوح من خلال مرحلتين:

مرحلة الدولة العامرية، ومرحلة الفتنة القرطبية، إذ كان الديوان كله مديحا في أسرتين اثنتين كان لهما الأثر الحاسم في توجيه الأحداث، باستثناء بعض القصائد الموجهة إلى بعض الأشخاص الذين كان لهم علاقة بأسرة آل عامر زمن الاستقرار وبأسرة آل تجيب زمن الفتنة[3].

إن موضوع صورة الممدوح في القصيدة المدحية لابن درَّاج القسطلي لم يحظ باهتمام كبير من طرف الباحثين و الدارسين العرب، و نظرا لحداثة تحقيق الديوان من طرف الأستاذ الفاضل محمود علي مكي ـ رحمه الله ـ نجد إشارات هنا وهناك مدرجة ضمن كتب التراجم القديمة، وبعض المؤلفات الحديثة التي اهتمت بهذا الشاعر الأندلسي الأمازيغي الأصل. (الأمازيغ هم السكان الأصليون لشمال أفريقيا وتعني الرجل الحر).

وعلى الرغم من ذلك فإن شعر ابن درَّاج لا يزال بكرا يحتاج إلى دراسات معمقة تؤسس لفترة من أزهى فترات الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

1_فن المدح في الشعر العربي القديم

ا– المدح لغة:

جاء في (لسان العرب) لابن منظور:"المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، يقال: مَدَحْتُهُ مِدْحَةً واحدة، ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ، مَدْحًا ومِدْحَةً. هذا قول بعضهم، والصحيح أن المَدْحَ المصدر و المِدْحَةُ الاسم، و الجمع مِدَحٌ، وهو المِدِيحُ والمدائح والأَمَادِيحُ. الأخيرة على غير قياس ونظيره حديث وأحاديث ،قال أبو ذؤيب:

لَوْ كَانَ مِدْحَةُ حَيّ مُنْشِرًا أَحَدًا أَحْيَى أَبَاكُنَّ–يَا لَيْلَى– الأَمَادِيحُ

والمدائح جمع المديح من الشعر الذي مُدِحَ به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مَادِحٌ من قوم مُدَّحٍ ومديح وممدوح".[4]وجاء في (أساس البلاغة) للزمخشري: "مدح: مدحه وامتدحه وممتدح وممدح، يمدح بكل لسان ،والعرب تتمدح بالسخاء، وهو يتمدح إلى الناس أي يطلب مدحهم، وعندي مدح حسن، ومديح ومدائح ومدحة ومدح وممدحة وأمدوحة وأماديح".[5]

ويقول الإمام أحمد بن فارس الرازي:"جذر الفعل (م،د،ح) يدل على وصف محاسن بكلام جميل، ومدحه يمدحه مدحا:أحسن عليه الثناء، والأمدوحة :المدح، ويقال للمنقبة أمدوحة"[6]
إذاً فالمدح هو الثناء الجميل ووصف محاسن الممدوح بالكلام الحسن.

ب– المدح اصطلاحا:

المدح من الأغراض الشعرية القديمة وقد عرفه الجرجاني – المعروف بسيد مير شريف– بقوله:"هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدا"[7]، وهو ـ أيضا ـ:" تعداد لجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا"[8]. وعلى حد تعبير قدامه بن جعفر ـ صاحب كتاب "الألفاظ الكتابية" ـ فإن المدح يتفرع عنه المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة[9].

ج_تطور غرض المدح في الشعر العربي القديم:

المدح غرض من الأغراض الشعرية القديمة التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي إلى اليوم ، إلا أنه لم يكن من فنون الشعر الأولى، لقد تأخر في الوجود عن الأغراض الأخرى التي يتغنى بها الشاعر بعاطفته الشخصية كالغزل مثلا، فغلب الفخر على مديح العرب فهم أهل نخوة و إباء، فلا تكاد تجد في شعر المهلهل أو امرئ ألقيس مديحا مبنيا على التملق و التكسب وتصنع الأخلاق.[10]

وقد ظل الأمر على هذا الحال حتى ضعفت أعصاب البداوة في بعض الشعراء، "فرأينا زهير بن أبي سلمى يتكسب يسيرا مع هرم بن سنان، ولكن بقي مدحه طبيعيا،لم يحاول فيه تلوين الحقيقة بذلك اللون الذي يعطيها في الوهم منظر الاستعباد، ولذلك فضله عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ بأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه. ثم ظهر النابغة فتكسب بشعره من المناذرة والغساسنة وهم ملوك ... وجاء الأعشى بعد زهير والنابغة، فجعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان"(11)، وظهر بعدهم الحطيئة فقبح الله همته الساقطة على جلالة شعره وشرف بيته(12).

لقد كان الشاعر الجاهلي تغلب على طبعه الأنفة من السؤال بالشعر إلا اضطرارا، فهو يرى ذلك نقيصة وتفضلا عليه وهو الذي عودته الحياة البدوية ألا ينحني ولا يخضع إلا لسلطان ذاته وقبيلته.

أما في صدر الإسلام فقد تطور هذا الغرض وانصبغ بصبغة الإسلام في ألفاظه ومعانيه وأساليبه، وبرز شعراء في مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم–، من أمثال حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك بقصائد خالدة في نصرة الدعوة الإسلامية. وقصيدة البردة لكعب بن زهير شاهدة على ذلك وإن بقيت هذه الأخيرة محافظة على تقاليد القصيدة العربية الجاهلية، كما مدح شعراء المشركين زعماءهم وأبطالهم مفاخرين ومدافعين عن إرث آبائهم الهالك، وهاجين الرسول– صلى الله عليه وسلم– وأنصاره.

وما أن جاء العصر الأموي حتى عادت العصبية القبلية تعلي من شأن القبيلة وتفاخر بأمجادها ونسبها، فكثر فيها المدح والهجاء وتحول هذا الأخير إلى فن جديد فأصبح يعرف بـ "فن النقائض" على يد الشعراء جرير والفرزدق والأخطل.

ويروى أن جميل بن معمر"جميل بثينة" لم يمدح أحدا قط إلا ذويه وقرابته، كما يروى أن عمر بن أبي ربيعة ترفَّع عن المدح والهجاء، وأن العباس بن الأحنف أنف عن المدح تظرّفا [13]. ويقال إن كثيّر عزة أول من فعل ذلك،"وقد حكي عن عمارة أن جده جريرا قال: يابَنِيَّ إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة، فإنه ينسي أولها ولا يحفظ آخرها ، وإذا هجوتم فخالفوا"[14].

وأما المُحْدَثون منُ الشعراء فقد أكثروا المديح، وقد جرَّأهم على ذلك جود الخلفاء ورغبتهم في اصطناعهم، ورغم النقد الذي وجه لهؤلاء الشعراء الذين جعلوا من الشعر أداة للتكسب والارتزاق لما فيه من الكذب وتجميل صورة الممدوح، وبذلك يكون الشعر بعيدا عن الصدق[15]. لكنهم لم ينقطعوا عن المدح والتكسب به في سبيل المال والجاه ونيل حظوه الخليفة أو الأمير.

د_فن المدح عند شعراء الأندلس:

لم يختلف شعراء الأندلس عن شعراء المشرق في هذا الفن الشعري فقد "نظموا المدائح وأكثروا منها، حتى لنرى بعض كبار شعرائهم من أمثال ابن هاني الأندلسي، وابن دراج القسطلي، وابن حمديس الصقلّي، قد خرج معظم شعرهم في المديح"[16].

إن المتتبع لتطور قصايدة المديح في الأندلس "يرى أن معظمها موجه إلى أمراء الأندلس وخلفائهم وملوكهم، وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان: جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، وهذه لا تخرج عادة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة، وما أشبه ذلك، أما الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تعد نصرا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية"[17].

يشير عبد العزيز عتيق إلى أن شعراء الأندلس يتأنقوا في مديحهم وينوعوا في أساليبهم بين الجزالة والفخامة والرقة والسهولة، كما أن طرائقهم في بناء القصائد المدحية تختلف من شاعر إلى آخر، فمنهم من يبني قصيدته على غرض المدح وحده، فيدخل فيه من غير مقدمات، ومنهم من يبنيها على موضوعين فيستهلها بالغزل أو وصف الطبيعة أو الخمر أو الشكوى أو العتاب، ثم يخرج إلى المدح، ومنهم من يبنيها على ثلاثة موضوعات فيستهلها باثنين من الموضوعات السابقة، حتى إذا بلغ غايته منهما انتقل إلى المدح، فعبد العزيز عتيق يرى أن الشاعر الأندلسي ليس مبدعا في المدح إنما يجري في ذلك على سنن الأقدمين فقصائدهم التي كانت تبنى من مقدمة طللية، فنسيب، فوصف للرحلة، فتخلص للمدح.

ولقد أشار ابن قتيبة الدينوري صاحب "أدب الكاتب" إلى الأسس التي قامت عليها تقاليد قصيدة المدح القديمة، فهو يرى سماعا عن بعض أهل الأدب أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها الشاعر بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، انتجاعا للكلأ وتتبعا للماء، ومساقط الغيث حيث كان.

ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق؛ ليُمِيل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب(التّغزُّل بذكر محاسن المرأة) قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما جعل الله في

تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد يكون أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أم حرام.

فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقَّبَ بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسُرَى الليل وحرَّ الهجير، وإنضاء(أَتْعَبَ ، وأَضْعَفَ) الراحلة والبعير؛ فإذا علم أنه قد أوجب على صاحب المقصود حق الرجاء والتأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه.[18]

هذه قراءة نفسية واجتماعية لابن قتيبة في تحليله للأسس التي قامت عليها القصيدة المدحية قديما، ونراه محقا في ذلك فالممدوح يستحق هذا التقديم وهذا العناء؛ فهو الذي سيغدق على مادحه الخير كلّه.

إن الشعراء الأندلسيين لا يختلفون كثيرا في بناء القصيدة عن الشعراء المشارقة، ولكنهم يمتازون عليهم بتنوع الموضوعات وثرائها، فالأندلس رغم كونها الامتداد الطبيعي للخلافة الأموية في المشرق ورغم ما شهدته من ازدهار في عهد الدولة العامرية، وخاصة في عهد الحاجب المنصور ومن بعده أبناؤه إلا أنها شهدت أحداثا وحروبا وصراعات وفتنا عز فيها أقوام وذل آخرون، وما عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري إلا شاهد على ذلك.

2- ابن درَّاج القسطلي :

هو أبو عمر أحمد بن مُحمَّد بن العاصي بن أحمد سلمان بن عيسى بن درَّاج الأندلسي القسطلي الشاعر الكاتب، كان كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعره. وهو معدود في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المقدمين، ذكره أبو منصور الثعالبي في "يتيمة الدهر "وقال في حقه "كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم ...وذكره أبو الحسن علي ابن بسام في كتاب" الذخيرة "وساق طرفا من رسائله ونظمه [19]، وكنيته أبو عمر[20].

ينحدر ابن درَّاج من أسرة نبيلة مرموقة الشأن حتى أن بلده قسطلة* كانت معروفة في كتب الجغرافيين باسم (قسطلة دراج)، وبنو درَّاج ينتمون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، ويبدو أن دخول هؤلاء إلى الأندلس كان يرجع إلى الوقت الذي افتتح فيه طارق بن زياد هذه البلاد في سنة 92هـ.[21]

فابن درَّاج كان ذا نسب عريق، وعائلته تداولت على رئاسة بلدة قسطلة، والذي يتأمل ديوان ابن دراج دون أن يعرف نسبه البربري لا يكاد يحس فيه بأي أثر لذلك النسب، ولعل هذا راجع في الغالب إلى أن البربر الذين دخلوا الأندلس في الرعيل الأول من فاتحيها المسلمين لم يستقروا في هذه البلاد حتى تأقلموا بسرعة مذهلة، هكذا لم يمض القليل من الوقت حتى اندمجوا في المجتمع الأندلسي اندماجا كاملا. [22]

فابن درّاج نشأ أندلسيا وعاش شاعرا محبا للعربية مبدعا في صورها وأخيلتها، ومؤمنا بقداسة كل ما هو عربي حتى في محنته في عصر ملوك الطوائف؛ ولمعرفة هذا الشاعر الفذ سنقف على مراحل حياته المتغيرة والتي قسمها الباحث الكبير على محمود علي مكي–رحمه الله–إلى المراحل الآتية:

المرحلة الأولى:(347–382هـ)

وهي مرحلة تسبق اتصال الشاعر بالمنصور بن أبي عامر* وهي مرحلة غامضة تفتقر إلى الدقة، ويعتمد محقق الديوان علي محمود مكي على التخمين والظن فيقول: "وأغلب الظن أن ابن درّاج بدأ حياته الدراسية تلميذا يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم في جَيّان لحفظ القرآن والإلمام بمبادئ النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه...ولسنا نستبعد أن يكون ابن درّاج وهو في غضاضة الصبا قد قام بعدة رحلات إلى قرطبة ... "[23]

المرحلة الثانية:(382–399هـ)

وهي من أزهى الفترات التي عاشها ابن درّاج في كنف الدولة العامرية، وأبدع فيها بقصائده المدحية في المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن شنجول،* معظِّما صورة ممدوحيه ومصوِّرا بطولاتهم وشجاعتهم في قهر الفرنجة وقيام دولة الحق والعدل بقصائد نافست فحول الشعراء في القرن الرابع والخامس الهجريين[24].

المرحلة الثالثة:(399–421هـ)

إنها مرحلة نهاية دولة وبداية عصر جديد، عصر الفتن والانقسام، إنه عصر ملوك الطوائف، وهنا الشاعر وجد نفسه في رحلة تيه وضياع، بين تلك الدويلات سواء من الموالين للعامريين من بعض الفتيان الصقالبة الذين كانت للشاعر علاقة معهم إبان الدولة العامرية كخيران العامري ولبيب العامري حاكم طرطوشة ومبارك ومظفر صاحب بلنسية وغيرهم من القادة والأمراء الأمويين من أمثال سليمان المستعين بالله والمهدي محمد بن عبد الجبار والمرتضى آخر ملوك بني مروان، ولكنه وجد الجفاء واللامبالاة من طرف هؤلاء الأمراء وقد صور ابن بسام هذه الوفادات حين قال:

"كان القسطلي–حسب ما قدمنا صدر هذا الديوان– من فتنة ذلك الزمان بمنشأ ليلها، وعلى مدرج سيلها، فأوثقته في حبالها، وعركته عرك الرحى بثقالها، ولم يزل يتقلب بين أطباقها، ويترشف أسآر ثمادها وأرناقها، فكم له من وفادة أخرى من وفادة البرجمي، ووسيلة أضيع من المصحف في بيت الزنديق الأمي، بقصائد لو مدح الزمان لما جار أو رواها الزبرقان"[25]

المرحلة الأخيرة:

وهي المرحلة التي قضى فيها الشاعر ما يقارب عشر سنوات في بلاط منذر التجيبي وابنه يحيى مادحا ومصوّرا لأحداث هذه المرحلة ومخلدًا لمآثر الأسرة التجيبية، وقد كتب فيها ما يقارب الثلث من إنتاجه الشعري أي سبعاً وأربعين قصيدة.

إن الشاعر ابن دراج القسطلي شاعر الأندلس بلا منازع باعتراف القدامى والمحدثين، وقد أكسبته تجربته الشعرية حُنكة ونبوغا في قول الشعر فصار متنبي الأندلس، وهذا أبو حيان الأندلسي يقول فيه:"أبو عمر بن درَّاج القسطلي سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين"[26].

3_القصيدة المدحية في ديوان ابن درَّاج القسطلي:

سنعتمد في إبراز ظاهرة المدح الذي تحول من غرض المدح إلى قصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي _رحمه الله_ من خلال مرحلتين متميزتين هما المرحلة العامرية والمرحلة التجيبية، والجدولان الآتيان يبينان نسبة القصائد المدحية وأهم وأشهر الممدوحين فيهما:

القصائد المدحية	الممدوح
1،3،4،77،78،99،100،101 102،103،105إلى 120	المنصور بن أبي عامر:وهو الممدوح الأول لابن درَّاج وخَصَّه وابنيْه بثلث شعره (3/1)
من 5 إلى 12 و121،135،130،104،79 122،123،124،126،	المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر
128	الناصر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر(شَنْجُول)
143،145	المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر: ابن شَنْجُول
23،24	الوزير عيسى بن سعيد :وزير العامريين

من 39 إلى 57 و139،129،82،75 و148،143،142، ومن 151إلى154 و159،157.	مُنْذر بن يحيى التِّجيبي :أمير سرقسطة اتصل به الشاعر سنة408هـ، وقضى ما يقارب عشر سنوات في بلاطه وبلاط ابنه وقد بلغ شعره الثلث في التِّجيبيين(3/1)
من 59 إلى 74،92،93،95 ،96،98،137،141، 146،56	المظفر يحيى بن مُنْذر بن يحيى (منذر الثاني) و هو ابن منذر الأول تولى إمارة سرقسطة بعد والده.

من الجدولين السابقين نخلص إلى أن جلَّ شعر ابن درَّاج في الأسرتين العامرية والتِّجيبية، ومع ذلك نجد للشاعر قصائد يمدح فيها بعض ملوك الطوائف، بل امتد مَدْحُه إلى قادة الجيش وأصحاب الشرطة وغيرهم.

4_صورة الممدوح في شعر ابن دراج:

لقد تنوعت صورة الممدوح في شعر بن درَّاج وتعددت معانيها، والجدول الآتي يرصد هذه الظاهرة ويبين قدرة الشاعر ابن درَّاج في تشكيل صورة ممدوحيه من أمراء وقادة وغيرهم:

رقم/ق	الأبيات	الممدوح	الصورة
	33 -جوادٌ له من بهجةِ العزِّ غُرَّةٌ		يصف ابن درَّاج المنصور بن أبي عامر أنه (جواد)، أي السخي الكريم، وقد جاءت هذه اللفظة على وزن (فاعل) لإظهار اليد الطولى للمنصور في

01	ومن شيمِ الفضلِ المبينِ حجولُ 34-به أَمِنَ الإسلامُ شرقًا ومغربًا وغالت غواياتِ الضلالةِ غولُ 35-يَصولُ بسيفِ اللهِ عَنَّا وإنما به السيفُ في ضنْكِ المقامِ يصولُ[27]	المنصور بن أبي عامر	فعل الخير، كما عبر الشاعر عن العزِّ الذي أصبح غرة في جبين الحاجب المنصور، و عن شيم الفضل التي أضاءت كف المنصور ابن أبي عامر، فالشاعر اقتبس هذا المعنى من الحديث الشريف الذي يصف المؤمنين يوم القيامة ويميزهم عن باقي الأمم الأخرى، فقد جاء في الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: **سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:" إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ**..."متفق عليه، فقد بنى منه الشاعر صورة للممدوحه ترفعه إلى مقام الناجين يوم القيامة؛ ولمَ لا وهو حامي الإسلام شرقا وغربا، فهو سيف من سيوف الله مسلول.
01	50-فيَهنيك يا منصورُ مبدأُ أَنْعُمٍ عَوائدُه صنع لديكَ جميلُ 51-وفرعان من دوحِ الثناءِ نمتها من المجد في التُّرب الزَّكِي أصولُ 54-ويَهْنِيكَ شَهرٌ عند ذي العرش شاهدٌ بأَنَّكَ بَرٌّ بالصيامِ وَصُولُ 55-فَوُفِّيتَ أَجْرَ الصابرين ولا عَدَا مساعِيكَ فوزٌ عاجلٌ وقَبُولُ[28]		يهنئ الشاعر المنصور بن أبي عامر على عوائده الجميلة، فهو الكريم ابن الكريم، ورث المجد كابرا عن كابر. إن الشاعر ابن دراج يرسم لنا صورة ممدوحه يوم العيد وهو العابد التقي الصائم والصابر المحتسب أجره عند الله ـ عزّ وجلّ ـ ،فهو لا ينتظر الثواب إلا من الله تعالى ... فيأتي الجزاء من جنس العمل في قوله تعالى: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " (سورة الزمر الآية 10)، فالشاعر برع في توظيف النص القرآني في مدح المنصور بن أبي عامر وأعطاه الصورة المثلى التي تليق بقائد عظيم حمل أعباء الجهاد ونصرة دين الله.
03	43-بُنِّيَ اليكَ اليومَ عنِّي فإنها عزائمُ كفُّ العامريِّ مداها 44-فَحَطَّتْ بمغنى الجودِ والمجدِ رَحْلَها وألقت بِرَبْعِ المكْرُمَاتِ عَصَاها 45-لَدى مَلِكٍ إحدى لواحظِ طَرْفِهِ بعين الرِّضَا حَسْبُ المنى وَكَفَاها 46-هو الحَاجِبُ المنصورُ والمِلِكُ الذي سَعى فتعالى جَدّهُ فَتَنَاهى 47-سليلُ الملوكِ الصِّيدِ من سَرْوِ حِمْيَرٍ توسَّطَ في الأَحْسابِ سَمْكَ ذُرَاها 52-ذَوُو المُلْكِ والتِّيجَانِ والغُرَرِ التي جَدِيرٌ بها التيجانُ أن تَتَبَاهى[29]		بقدر ما رسمت جملة " بُنِّيَ إليك اليومَ عنِّي " تعلق الأهل وتشبثهم بابن دراج، فبالقدر نفسه عكست علوق الشاعر بالعامري ومدى حبه له، فمن أجله تشد الرحال، أو ليس هو ولي نعمته ومليكه؟ فهو صاحب كرم ومجد فيكفي الشاعر بن درَّاج رضاه فهذا ما يتمناه الشاعر من الحاجب المنصور الذي تعالى نسبه وارتفع وعزّ؛ فهو سليل الملوك من سرو حمير، ذوو الملك والتيجان، فقد تباهت التيجان بكم بدل أن تتباهوا أنتم بها، فجاءت الصورة مقلوبة فالأصل أن تتباهى الملوك بالتيجان وبأحجاره الكريمة وتتنافس في ذلك إلا أن شاعرنا قلب الصورة فالتيجان هي التي تتباها وتفتخر بأن توضع على رؤوس بني عامر وهذا يدل على براعة الشاعر في إخراج صورة ممدوحه ورسمها.

100	49-وفَلَّ عَنِّيَ أحزابَ العِدى مَلِكٌ مُعَوَّدٌ أن يفُلَّ الجحفلَ اللجِبَا 50-ويَتْرُكَ المِلكَ الجبَّارَ مُخْتَلَعًا عنه رِداء العُلَاَ والعِزَّ مُسْتَلَبَا 51-مُجدَّلًا بِجُنُوبِ الأَرْضِ مُنْعَفِرًا ومُشْعَرًا بِنَجِيعِ الجَوْفِ مُخْتَضِبًا[30]	المنصور بن أبي عامر	يشيد الشاعر بممدوحه المنصور بن أبي عامر الذي فنَّد مزاعم خصومه من الشعراء الذين اتهموه بالانتحال والسرقة وقد أكرمه أيّما إكرام، فهو القائد الفطن الذي هزم جحافل الأعداء وترك مَلِكها ذليلا؛ يجر أذيال الهزيمة، عبّر عن ذلك بالعبارة " مُخْتَلَعًا عنه رِداء العُلَاَ والعِزَّ مُسْتَلَبَا"؛ و لم يكتف بذلك حتى تركه مخضبا بدمائه. فقد شكل ابن درّاج بهذه الأبيات صورة القائد الكيس الفطن الذي يقف عند الحق و يقهر الأعداء ويذلهم.
111	16-يا قائِدَ الخيلِ العِتاقِ كأَنَّما عَزَمَاتُهُ أَرماحُها وشِفارُها 17-ليثٌ يُخاطِرُ في المكَرِّ بنفسِهِ هِمَمٌ عظيمٌ في العلا أَخطارُها 18-أَوطَأْتَ أَرضَ المشركينَ كتائباً فيها وَشيكٌ فَنائها ودَمَارُها 19-وتركتَ أَرضَ "لِيُونَ" وَهِيَ كأَنَّهَا لم تَغْنَ بالأمسِ القريبِ دِيارُها 20-مرفوعةً لكَ في العلا أَعلامُها لما غَدَتْ بك عافِيًا آثارُها [31]		يستفتح الشاعر الأبيات بالنداء لجلب انتباه المتلقي عبر الزمن لعظمة هذا المنادى الذي جاء معرفا بالإضافة، فقد أضيف هذا القائد للخيل العتاق؛ أي الكريمة والأصيلة وهي كناية عن رفع لواء الجهاد في سبيل الله، كما يشبه عزماته بالرماح والشفار في قوتها وحدتها وفتكها، فهو ليث ووجه الشبه هنا المخاطرة، وعدم الخوف دليل على همته العالية . ويواصل الشاعر رسم صورة ممدوحه الحاجب المنصور المنتصر على الأعداء من خلال الواقعة الحربية المتمثلة في غزوه مملكة" ليون"وتدميرها . وقد أحسن الشاعر استعمال ألفاظ وعبارات أسهمت في تشكيل هذه الصورة. إن استخدامه للفعل "أوطأت" فيه دوس بالأقدام لأرض "المشركين" ولم يقل أرض الكافرين إشارة منه إلى المتآمرين من المسلمين من أمثال عبد الله بن عبد العزيز الأموي المعروف باسم بترة شقة (الحجر اليابس) (الديوان ص549) كما نجد عبارة "كأنها لم تَغْنَ بالأمس" المقتبسة من قوله تعالى: "... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" سورة يونس الآية 24. فابن منصور من شدة وطئه بجيوشه لتلك المملكة صيرها خرابا ودمارا لا يرجى منها النفع، وكأنها لم تعمر ولم تسكن من قبل؛ ليختم بجملة "مرفوعةً لكَ في العلا أَعلامُها" كناية عن النصر المبين.

	5-أَلَا في سبيلِ الله عَزْمَتُكَ التي على الدينِ والإسلامِ منْها دَلَائلُ 6-فقد نَطَقَتْ بالنصرِ فيها شواهدٌ وقد وَضَحَتْ للفتح منها مَخَائِلُ 7-فأَبْشِرْ فنجمُ الدين بالسعد طالِعٌ وأَيْقِنْ فنجم الشِّرْكِ بالخزيِ آفِلُ 14-كَرُمَتْ فما يَعْيَا بِحَمْدِكَ مُفْحَمٌ وسُدْتَ فما يَغْبَى بِقَدْرِكَ جاهل 15-وَجودُك في سلْمٍ وبأْسُكَ في وَغًى بُحُورٌ طوامٍ ما لهُنَّ سواحل [32]	عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر	صورة المجاهد في سبيل الله، المؤيد بالنصر؛ الذي نطقت به الشواهد التي شبها بالإنسان ثم حذف المشبه به(الإنسان) وجاء بشيء من لوازمه وهو النطق على سبيل الاستعارة المكنية. و هو الهازم للشرك والمشركين، الكريم الذي لا يوفي كرمه شكر ولا ثناء. فهو الجواد في السلم وشديد البأس في الحرب، فقد شبه الشاعر بالبحور الطوام التي لا ساحل لها.
07	4-فَلَا أَوْحَشَتْ من عِزِّ ذكرِكَ دَوْلَةٌ إليكَ انتهى مأْمُورُهَا وأَمِيرُها 5-فما راق إلا في جبينك تَاجُهَا ولا قَرَّ إلا إذ حواك سريرُها 6-فلا راعها خَطْبٌ وسيفُكَ أُنْسَها ولا رامها ضيمٌ وأنتَ مُجيرُها 7-ومَنْ ذا يُناوِيهَا وأنت أميرُها ومِنْ نَسْلِكَ الزَّاكي الكريمِ وزيرُها؟ 8-فتًى طالَعَتْهُ بالسعود نجومُها وطارت له باليُمْنِ فينا طيورُها 9-أَذَلَّ له"عبدُ المليكِ" ملوكَهَا وأَنْجَبَهُ "المنصورُ" فَهُوَ نصيرها[33]		صورة القائد الذي انتهى إليه السلطان والقوة. وصورة الاستواء على العرش(التاج،السرير)، فهو حامي الدولة العامرية بسيفه، ورافع الظلم عن أهلها.
09	8-وأَشجعَ من حَطَمَتْه الخيولُ وأَهْيَبَ من رَهِبَتْهُ الأسودُ 9-وأَصمدَ من جَرَبَتْهُ السيوفُ وأَجمَلَ من ظَلَّلَتْهُ البُنُودُ 10-ومَنْ هو للمُلكِ سورٌ منيعٌ ومن هو للدِّينِ ركنٌ مَشِيدُ[24]		صور الشجاعة المتلونة بصورة الفارس المهيب المجرب والأجمل وهو يرفع رايات النصر، وقد وظف الشاعر أفعل التفضيل في أسلوبه(أشجع ـ أهيب ـ أصمد ـ أجمل)؛ التي صورت الممدوح في أعلى الرتب من هذه الصفات، كما استعمل أسلوب الاستفهام في البيت 10 الذي غرضه الفخر و التباهي بالممدوح

39	58-وَمَشَاهِدٍ لَكَ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُهَا ظَنًّا يَرِيبُ وَلا حَدِيثًا يُفْتَرَى 59-لاقَيْتَ فيها المَوْتَ أَسْوَدَ أَدْهَمًا فَدَعَرْتَهُ بالسَّيْفِ أَبيضَ أَحْمَرَا 62-و"المُنْذِرُ" الأَعْدَاءَ بالبُشْرَى لَنا صَدَقَتْ صِفَاتُكَ مُنْذِرًا وَمُبَشِرًا 63-ما صُوِّرَ الإِيمانُ في قَلْبِ امْرِئٍ حتَّى يَرَاكَ اللهُ فيهِ مُصَوَّرَا (35)	منذر بن يحيى	صورة الأيام الشاهدة على شجاعة وبطولة منذر بن يحيى الذي واجه الموت فهزمه، هو المنذر للأعداء المبشر بالنصر، هو صورة الإيمان في قلوب المؤمنين. فمنذر بن يحيى هو صورة للمجاهد الحق في سبيل الإسلام.
59	5-ومُلْكًا وتَمْلِيكًا وفَلْجًا وغِبطَةً وعزًّا وإعزازًا ونصرًا وتمكينًا 6-دُعاءٌ لمن عَزَّتْ به دعوةُ الهُدى يقول له الإسلامُ :آمِينَ آميناَ 7-فبَيَّ مَلَكَ الدنيا فَمَلَّكَنَا بها وجاهدَ عنَّا ينصُرُ المُلْكَ والدِّيناَ 8-فقلَّد أعناقَ الأُسُودِ أَساوِدًا وحلَّى أَكُفَّ الدَّارِعِينَ ثَعابيناَ (36)	المظفر يحي بن المنصور	صورة الملك المعتز بملكه، الممكن بنصره، فالمظفر يحيى بن المنصور فتى عزّ به الإسلام والمسلمون في دينهم ودنياهم. فشجاعته تجاوزت الوصف والخيال فهو مروض الأسود والثعابين..

	5-وناديتَ بالإنْعَامِ في الأرضِ فالْتَقَتْ بيُمناكَ أَشْتَاتُ الطَّرَائِقِ والسُّبْلِ 6-وحَلَّتْ بكَ الآمالُ في عَدَدِ الدَّبى فوافَتْ أَيادٍ منكَ في عَدَدِ الرَّمْلِ[37]	الوزير عيسى بن سعد	صورة الرجل الكريم صاحب اليد الطولى، وصورة الآمال المعلقة عليه.
33	44-فَتًى سَيْفُهُ لِلدِّينِ أَمْنٌ وإيمانٌ ويُمْنَاهُ لِلْآمَالِ روحٌ ورَيْحَانُ 45-تَقَلَّدَ سَيْفَ اللهِ فينا بِحَقِّهِ فَبَرَّتْ عُهُودٌ بالوفاءِ وَأَيْمَانُ[38]	خيران العامري	صورة الفتى الشجاع ناصر الدين الفتى الكريم المعطاء.

تنوعت صور الممدوح من قصيدة إلى أخرى، وتفنن الشاعر في إخراج معانيها بصور متعددة، مما زاد من ثراء القصائد وجمالها، ومن هذه الصور نجد: الشجاعة، الكرم، الواقعة الحربية، الخلَف الصالح، المجد، إقامة شعائر الدين، العدل، الجهاد ...فصورة الشجاعة مثلا هي إحدى الصور المتواترة في الديوان أخرجها الشاعر في عدة أوجه، فالشجاعة تارة اقتدار على خوض الحروب؛ وهي الفتك بالأعداء وهي استبسال في الدفاع؛ وهي دهاء في قيادة المعركة وحنكة في المواقف الصعبة، فكل معنى من هذه المعاني يندرج ضمن المعنى الأشمل وهو الشجاعة.

أما من حيث أهمية هذه الصور فإن الشجاعة كانت الأكثر حضورا في القصائد المدحية لابن دراج، وهكذا تجلت صورة الشجاعة عند ابن درَّاج بصور متنوعة ومختلفة يوضحها الرسم البياني الآتي:

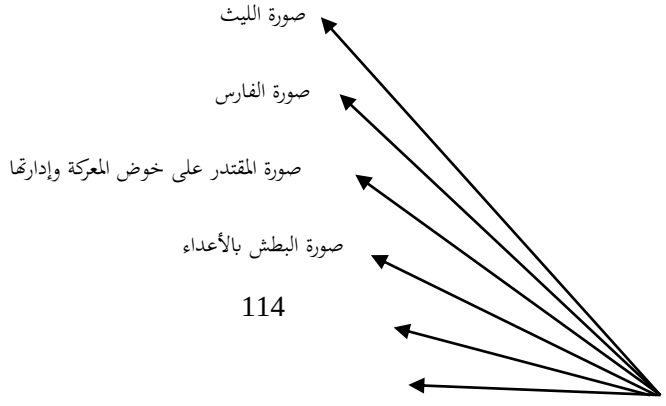

صورة المستبسل في الدفاع عن حمى المسلمين

الشجاعة صورة الدهاء والحنكة في إدارة المعرك

أما الكرم فهو سحابة ممطرة على الشاعر ابن دراج، وهو اليد الممدودة إلى العلياء، وهو الإغداق بلا حدود على الأضياف، وهو سقي الأرض العطشى، أرض الشاعر التي أنبتت شعرا يؤتي أكله كل حين بإذن ربه. والمجد صورة لتلك المناقب العظيمة التي ورثها الممدوح عن أجداده؛ وعن النسب العريق الضارب في التاريخ، كما أن صورة الممدوح قد أخرجها الشاعر في صورة دينية كتقوى الممدوح وورعه ،وحماية الدين ورفع لواء الجهاد.

لقد أسهم ابن دراج في تسجيل عدة وقائع حربية خاضها ممدوحوه، ورسم لنا لوحة متعددة الألوان تنعكس عليها كل الأطراف المادية و المعنوية المشاركة في تلك الواقعة. فتصوير الواقعة الحربية هو تصوير لدور الممدوح في الحرب و الحالة النفسية للعدو وأحداث القتال ووصف أدوات الحرب ووصف الجند ثم التبشير بالنصر وتهنئة الممدوح بذلك.

وما نلاحظه أن صور الممدوح فيه ما هو جاهلي وما هو إسلامي فمن المعاني الجاهلية في وصف الممدوح الشجاعة الكرم ...ومن المعاني الإسلامية الجهاد وإقامة الدين وقد حاول ابن دراج أن ينزل هذه المعنى والصور منزلتها الأندلسية الخاصة.

ونخلص في بحثنا هذا إلى جملة من النتائج منها:أن الشاعر ابن دراج القسطلي الأمازيغي الأصل شاعر فذ تجاوز شعره حدود شخصيته، و لا سيما أنه عاش فترتين متناقضتين مرحلة انتصارات القائد العظيم المنصور ابن أبي عامر، ومرحلة الفتنة القرطبية، وتيه الشاعر ورحلته بين فتيان بني عامر وغيرهم، حتى استقر به الحال عند يحيى التجيبي الذي مدحه هو الآخر بثلث شعره. وقد خلد الشاعر هاتين الفترتين بقصائد" لو مدح الزمان بها لما جار أو رواها الزبرقان" على حد قول ابن بسام.

إن القصيدة المدحية بدت متميزة في معانيها ومواضيعها وأساليبها ومعجمها اللغوي، كما أن صورة الممدوح –وهو مقصدنا في هذا البحث–قد تنوعت وتفاوتت من ممدوح إلى آخر، و من قصيدة إلى أخرى وجاءت متعددة الألوان والأشكال مما يدل على براعة وحذاقة ابن درَّاج القسطلي...كما أن شعره المدحي ما زال يطرح قضايا نقدية كثيرة منها قضية التأثير بين المشرق والمغرب وقد أثبت ابن دراج–رحمه الله– قدرته على مجاراة المشارقة بل منافستهم ومنافحتهم.

قائمة المصادر والمراجع :

1- ابن دراج القسطلي: هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد سلمان بن عيسى بن دراج الأندلسي القسطلي الشاعر الكاتب. كان كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعره وهو معدود في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين.
(مراجعة ترجمة ابن دراج وأخباره .جذوة المقتبس ترجمة 186 .الثعالبي :يتيمة الدهر :2/103–116 .ابن بسام الذخيرة ق59–889،450،376،353،351،103 .ابن بشكوال :الصلة ترجمة 77 . ينظر:مقدمة الديوان .تحقيق وتقديم : محمود علي مكي.ط1.دمشق: منشورات المكتب الإسلامي.1961م .ص 21. وط2. الكويت:منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري،2004م.ص.8)

2_ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد.ط2.القاهرة،1956م.ج1.2/104.

3 _ينظر: لمحضر، المصطفى.ابن دراج القسطلي الأندلسي- بين الانتصار والانكسار- ط1. مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية.2010م .ص9.

4- ابن منظور. لسان العرب. مادة: (مدح).ط1.بيروت: دار صادر،1997م.ج6، ص27.

5 _ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. أساس البلاغة. تحقيق: عبد الرحيم محمود.(د.ط). بيروت: طبع دار المعرفة.ص 324.

6 _ القزويني، أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون .دار الفكر ،1979م .ج5.ص308.

7 _ الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد. التعريفات.ط1.بيروت، لبنان:دار الكتب العلمية ،1983م. ص 297.

8 _جبور، عبد النور:المعجم الأدبي.ط2. بيروت: طبع دار العلم للملايين، 1984م.ص245.

9 _ ينظر :قدامة بن جعفر. نقد النثر. طبعة القاهرة، 1983م. ص81.

10- ينظر :عتيق،عبد العزيز.الأدب العربي في الأندلس. بيروت، لبنان:دار النهضة العربية ،(د.ت).ص183.

11- المرجع نفسه،والصفحة نفسها.

12- ينظر:ابن رشيق، أبو علي الحسن.العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده-باب التكسب بالشعر والأنفة منه-تحقيق :عبد الحميد هنداوي.ط1.بيروت:المكتبة العصرية،2001م.ج1.ص ص69_72.

13 _ ينظر:عبد العزيز عتيق، ص184.

14-ابن رشيق القيرواني، ص148.

15-ينظر:عبد العزيز عتيق، ص184.

16 -المرجع نفسه،ص 185.

17-المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

18 - ابن قتيبة،أبو مُحمَّد بن عبد الله بن مسلم .الشعر والشعراء.تحقيق وشرح: أحمد مُحمَّد شاكر.القاهرة:دار المعارف. ج1 ص74،75

19- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (608_681هـ) تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ج1، ص 135.وديوان ابن دراج القسطلي،مصدر سابق،ط2. ص8.

20 -مقدمة الديوان،ط2.ص8.

* قسطلة : قرية في غرب الأندلس،هذا ما ذهب اليه الحميري، أما موقعها فهي القرية الداخلة في حدود البرتغال والتي تسمى (cacella)، من أعمال منطقة Algavre انظر: .مقدمة الديوان ،ص14.

21 –الديوان، ص9.

22– الديوان، ص 10.

*المنصور بن أبي عامر: هو الملك الأعظم المنصور بن أبي عامر مُحمَّد بن عبد الله بن عامر ابن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من قرية تركش، وعبد الملك جده هو الوافد من الأندلس مع طارق في أول الداخلين من العرب. وقال في المطمح في حقي بن أبي عامر: إنه تمرس في بلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى

البقاع و تركهم أذل من وتد بقاع، ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم .(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تأليف الشيخ أحمد بن المقري التلمساني حققه: د. إحسان عباس ج1دار صادر بيروت1988م) ص ص: 392 ،403..

23 - المصدر نفسه، ص ص19،20.

*شنجول:هو عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر،أخو عبد الملك المظفر .وشنجول اسم جاء من قبل أمه عبد بنت شنجة النصراني. البيان لابن عذاري:83/3.

24 -ابن دراج القسطلي. بين الانتصار والانكسار .مرجع سابق .ص 72.

25-- ابن بسام، الشنتريني.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.تحقيق: إحسان عباس.لبنان:دار الثقافة،1997م. ،ج1،ق3،ص ص 10،11.

26 - المصدر نفسه ،ج1،ق1،ص 60.

27 - القسطلي، ابن دراج. الديوان.ط2.مصدر سابق.ص78.

28- الديوان، ص80.

29 - الديوان، ص ص 86،87.

30- الديوان، ص501.

31- الديوان، ص550.

32- الديوان، ص ص94،95.

33 - الديوان، ص96.

34 - الديوان، ص ص101،102.

35- الديوان، ص219.

36- الديوان،ص349.

37- الديوان، ص123.

38 - الديوان، ص177.